قطار نصف الليل

بقلم: جاذبية صدقي

صديقي العجوز ، قطار الصعيد هذا! يقول لي اشياء واشياء وانا قابع في ركني العتيد من احدى عرباته . كل خميس تجدني هناك . اصغي له ملا ملل وهو يحملني الى صغاري في العاصمة من القرية النائية الناعسة في اعمق ربوعه ، حيث اعمل موظفا متواضعا في تفتيش ضيعة تابعة لوزارة الاوقاف. ربما تسألني لم لا اصطحب صغاري هؤلاء وامهم معي ، حينئذ سأجيبك ان « صغاري » هؤلاء اصبحوا رجالا الآن وشبابا يطلبون العلم في الجامعة — القليل منهم والفتيات . ومع ذلك اسميهم « صغاري » — هل يلومني احد؟ لن يغير شيئا من وضعهم هذا . ثم انهم عند ما كبروا وشبوا عن الطوق ، كبرت انا ايضا . فالنسبة محفوظة . عجيب والله امر « الصغار » هؤلاء وما يفعلونه نفوسنا ! خذني مثلا — انى لم اضق يوما بنفقاتهم .. وطلباتهم .. ومشاجراتهم .. ومجادلاتهم .. ومناقشاتهم — حتى آراؤهم التي يفرضونها على ، لم اضق بها . ولا اضيق اليوم ، مع ان ظهرى قد انحنى وكللي الشيب — في شعري الشهب وفي قسماتي . لكنه قط لم يمس روحي . شابة ، هي هي . لقد كانت — روحي هذه — صبية تتقافز .. وتلعب الكرة « الشراب» في الحارة .. وتهوى حلوى « المساعة » .. واراجيح المولد ، عند ما كان « صغاري » يتقافزون ويفعلون هذه الاشياء كلها . ثم استوت روحي شابة متفتحة .. متطلعة .. مشرئبة ... منطلقة .. تتدفق بآمال وحيوية — مثل ابنائي . والآن روحي في الجامعة — معهم ايضا . خطوة خطوة من حياتهم احياها معهم ، تنعكس على انفعالاتهم وانطباعاتهم واتجاهاتهم . اعيش شعورا شعورا كالمدوه .. وتتبلور في عيني دموع براقة كفصوص دموعهم ... واتذوق ابتسامة ابتسامة تطلقت بها وجوههم .. واستمتع بكل احساس نموا به .. واضحك مع كل ضحكة تفجرت عنها قلوبهم الفتية . خير اكسير في الدنيا هذا صدقوني ! حياتي حلوة .. متدفقة .. ملونة .. متجددة ابدا لانني اريدها هكذا ، كانما في اعماقها عين جلية .. صغيرة .. موارة .. تفرغر محبوبة تمدها بها !

فكان ان تركتهم في العاصمة .. وارتعش بفرحة كبرى متجددة كل خميس وانا اصعد الى القطار ليحملني اليهم . واقبع في مقعد واحد لا اغيره — اني لم اغيره طوال العشر سنوات التى عشتها وحدى . ثم اغمض عيني ، اولا اغمضها وانا المم فرحتي حولي كانها رداء سابغ واسع فاخر وثمين يلفني من

ممه رأسي الى اصبع قدمي الصغير ؛ واصغي للصخب الذي يصنعه صديقي القطار العجـــــور . من فرط اشتياقي وفرحتي ، اصغي له . لعبة هذه ابتكرتها بيني وبين نفسي لقتل الســـــاعات الطويلة . حقا ثرثار هو ، صـــديقي القطار ، لكنني لا أضيق بثرثرته تلك التي ترن في اذني عبري سلســــــلة سلاسل لاأكثر .. ودمدمه محلات .. وصفير .. وشهيق .. وزفير وهـــــو يلهث مزمجرا يحملنا في قلبه .. او على قلبه .. ويجرر وراءه عرباته المحاذر المتهالكة مثله والتي تتعلق مشـــــيئة بعنقه هكذا ! عربات تكاد تتحسل لا تجري من فرط صخر ، ثم ان من شبابيكها ما لا مصراع له . فتبدو كأفواه هتمــــاء فاغرة ، من كبر او من ارهاق وهي تلهث تستطع الهواء ابتلاعا !

فابتسم في ركني ، وتتسع ابتسامتي وانا اتحملها بشاحرة .. تلك الصلصلة وتلك الجلبة والضوضاء ... بين القطار وبيني سالفه الكثيرات اللاتي ربط بعضه مع ايام الشـــــباب .. وغروره .. وعنفوانه .. واندفاعه ، محتمي الآن على ثقلـــه مي بكوره يمسك بتلابيبه لايفلته! والعمل . كثيرا ما تهاوى المســـكين ، يمضي الليل بما الى جوار قناة ، كسير العين والنفس كأنما غشي عليه .يلتف حوله مسئولون مناديل كالشــــــمة ، يتحسسونه .. ويصغون لنبضاته .. ويسقونه ماء .. ويريحونه حتى يسترد ويسترد قوته — تماما مرضى وهـــؤلاء اطباء .

واليوم كاد يعوقني ، لكنني ركضــــت خلفه وركضت حتى لحقت به . فقفزت اليه بآخر عربة . ومررت عبر ممراتها الى عربة أخرى .. ثم أخرى .. ثم أخرى ، اتعثر في سلال وجرارات وقدور تملأ خياشيمي معها رائحة الجبن المنقلة بـ « المش » ... ورائحة « البتــــاو » بالحلبة ... ومحول البصل الصـــعيدي المصر . رائحة نفذت كسحب دخان قوية غير مرئية من خياشيمي الى خلايا دماغي ، تتعلق بها وبثيابي — تصميمي لتفوح مني بدوري ! ومع ذلك ابتسمت لها . لم اتضايق . وهل يتضايق المرء من محارمه ، عند ما يحيونه بطريقتهـــــم الخاصة ؟ وتلك الروائح لي بها معرفـــة في تاريخ حياتي . لن اتنصل منها . لن اخجل — احبها ، احبها ! لي معهـــا ذكريات غالية سعيدة ، سمحت دفئا في اوصـــالي .

كانت تلك الافكار الهائلة تملأني مرحا يشي له مني عن انفصامه لاعجب . وانا اقفز فوق « مشنة » .. او اتفادى الارتطام « بسلال » .. او احتضــــن جرارة ضخمة تسد الدهليز مالف حولها بحكمة ودراية . حتى وصلت الى ركني المعتاد في حجرة لها باب زجاجي . فما كدت اسحبه حتى لطمتني رائحة اخرى غريبة هنا وحادة .. وصادة ! يا الهي! ماذا دهى يومي ؟ اللهم اجعله خيرا !

ترنحت ، يدور رأسي كأنما تربصت في قبضة غادرة في العيشة الـــسافلة . عيشة لا يخفف منها سوى كوب نور يعلوه تراب سفي معلق في الســـقف المقوس — نور اصفر سقيم هـــزيل يخبو ويضيء .. ثم يخبو ويخبو حتى يكاد يخمد .. ثم فجأة يضيء .. ثم مرة ثانية من فوره يخبو ، كأنه غبي يقاوم النوم .

فوضعت سلة البيض الصغيرة التي

احملها هدية لاولادى عند قدمى ،حيث ربضت فى دعة واســـتكانة كالقط الاليف . على حين ارتميت انا اتروى فى ركنى . فما لبثت أن سرت فى ســعادة وطمأنينه واما ادور بعينى فى الحجرة الضيقة المألومة . فتسمرتا ... عيناى هاتان ... على الرف المعلق فــوق المتمد المقابل . فقد كان يطل على منه راس ضخم لغزال محنط بأحاســيس اعلف الظن انهـــا هى التى نفثت تلك الرائحة الغريبة اللاذعة . راس تعلوى قرونه طويلة نافرة كأنها ثعابين كثيرة مررت الى نصفها من كهوفها ثم فجــأة تحجرت باشارة من ساحر، كما فى احدى الاساطير الافريقية المولع انا بقراءتها . او كأنما تلك القرون غصون متفرعــة لشجرة غريبة نادرة نبتت من قلب جمجمة الغزال !

وكانت على المقعد عيبه ... تحــت الرف براس الغــزال المحنط .. صرة شيف حجر بها صاحبها لنفسه مكانا . لابد انه مكافح مثلى ، امتصت شبعه المسئوليات ولعقت صـــحته الهموم . تطالبه اولاده باشياء محببه واشياء ! انا نفسي طالبتنى اولادى ذات مرة بثعلب حى ليربوه فوق السطوح ! تصوروا ! ومرة اخرى . مجموعة عقــارب لابنى طالب الصيدلة . ومرة بنتى قالت لى :

ــ « والنبى يا ابى ، هات لى معك الخميس المقبل انثى قنفد ــ صاحبتى « نعمات » عندها سلحفاة فى حجــم الارنبة ، و « ميرفت » عندها افعى بلا اسنان نخيف بها صــويحباتها ونضـــحك كلنا ! »

هكذا الابناء . الله فى عونه ، هــذا الاب الجالس امامى ! والله قلبى يستفتى اليه يرف حوله ، قبل ان اراه . لابد انه الاروسط الزحام فى الخارج بودع اهله، او يشترى لنفســه سميدا وبيضتين . ثم يعود ليفترسهما فى ركنه كالفار . او لعله عود قصب ، ذلك الذى ذهب يشتريه . فيكسره على ركبته الى نصفين ، ويمد يده الى .. زميله فى السفر ... بالنصف الحلو الذى تفرع منه الجذور . فاهل الصعيد يؤثرون الضيف او عابر السبيل على انفسهم . لكننى بالطبع سارفض ــ تأدبا ، واكتفى بمقلتين من نصف العود العلوى حيث يقل الحلاوة . لكننا سنهنأ سـسـمة بمضغنا المص .. ونحن نمتص عصير القصب بقدر ما تسمح اسناننا .. ونلقى بالقشور على جريدة نبسطها تحت اقدامنا ، ثم نكورها ونقذف بهــا من النافذة فى وجه الليل والقطـــار منطلق ــ ولا من شاف ولا من درى ! وسوف اعطيه انا نصف الدجاجة التى حمرتها لمشاتى « ام اسماعيل » التى تخبز لى وتطبخ لى ، وتغسل لى . وسوف يرفض بدوره ، لكننى ســوف الح عليه الحاحا شديدا حتى يقبل . فأناوله معها رغيف « ملو » ليضــعه على ركبته ونصف الدجاجة فوقه ،كأنه صحن . ونأكل .. ونـــمد .. ونمر الوقت .. ونحن نتضاحك ونحكى نوادر من اطفالنا ــ خاصة عن « عــادل » اصغر ابنائى . والله لو انى اشتريت مثل راس الغزال الذى يطـــل على من فوق الرف المقابل ، لجاء العفـــريت الصغير وعلق فى القرنين الرهيبين حبلا وتارجح عليه ... !

ضحكت .

ضحكت وحدى من الصـــورة التى

رسمها خيالى .. والدنيا ليل .. وقطار الصعيد يزمجر ويشق الليل والمزارع والسكون .

وفجأة ذاب ضحكي . لمحته من وجهي حقيبة قائمة — كيف يشترى الرجل عود قصب او بيضتين وسميدة، والقطار منطلق هكذا منذ ساعة ؟ اى والله ، صحيح ! كيف ؟ ومن ؟ ... وقد خلفنا المحطة وراءنا باميال ! ثم خطر لي خاطر ، عادت معه ابتسامتي لعله في دورة المياه ! ولكن ، ساعة بحالها ؟ ولم لا ؟ لعل معه مجلة مسلية — هكذا! مراح بمعض الناس !

فهززت كتفي . مالي انا وما للناس؟ واخرجت دجاجة «أم اسماعيل» ونزعت عنها الجريدة» التي لفتها بها المرأة مع رغيفين من « ملاو » .ورحت آكل ، اعمل اسناني المتآخرة في اللحم الطرى .. هاتنا مقلدا .. اسلى نفسي بنفسي واحكى لها حكايات . حتى شبعت وحمدت ربي . لكنني لم انسه تركت له نصف الدجاجة لعشائه عند ما يجيء — زميلي المجهول في السفر . ثم لميت العظام التى تخلفت من نصيبي من الدجاجة ووضعتها بعناية داخل الجريدة المزيتة وكورتها لالقيها من النافذة . ولكن تلك النافذة اللعينه لم تحترم كهولتى وضعف ذراعي .فقاومتني بعناد حتى ضقت بها . فوقفت وسط الحجرة حانقا ، امسك بكرة الورق بين كلتا يدى كأنني طفل كبير ساذج . فاطعمت اول دافع راودني للتخلص من تلك اللقامة .

امحنيت امحناءة خفيفة والقيت بها تحت المقعد المقابل ! ومن فورى غشيت . غشيني شعور بالذنب قوى اقلقني . فانحنيت أكثر ، ابحث عن كرة الورق تحت المقعد لاستردها والقيها بمعاونة خادم القطار من النافذة او في سلة مهملات ، ان كان لديهم واحدة . اى شيء ، فقط امحو اثر ذلك الاندفاع الذى جعلني اتصرف كتلميذ ابتدائي شيطي. لكن الظاهر ان اللفافة كانت قد تدحرجت تحت المقعد بعيدا عن متناول يدى . ومع ذلك لم يرحمني ضميري .فارتميت على ركبتي.. .وبحدى على الارض... رحت احدق في الظلمة تحت المقعد .

فلما اعتادت عيناى الظلمة واستطعت ان امير المرئيات، دارت بي الدنيا دورانا عنيفا ..! فادت الارض تحت ركبتي كانني راكع على فحيم ..!

فقد تسمرت عيناى في عينين مذعورتين .. هناك .. تحت المقعد .. حيث مختفي صاحبهما !

ولست أدرى كم ظللنا من وقت هكذا ! هو منبطح على بطنه كأنما سقط من عل في جحر ضيق ضيق لايسع اية حقيبة مهما صغر حجمها ، وانا ساجد كأنما اصلي — فقط جدى هو الذى على الارض لا جبهتي !

واخيرا .. بعد لأى .. عند ما جمعت شتات نفسي المبعثرة من وقع المفاجأة.. وهممت ان أتراجع — بل اني فعلا اتيت بحركة لانهض ، انطلقت يده كالسهم واطبقت على ذراعي فشلني مكاني .

يا سيدي عبد الرحيم يالقناوى — مدد!

فتحت فمي لاصرخ .. لاصيح .. لانادي احدا ما على الاقل ، فلم يخرج لي صوت ! فانا رجل على قدر حالي... وفي حالي .. لم الق من قبل في حياتي موقفا كهذا — ولا اقل بكثير من هذا !

سنوات عمري التسع والخمسون كلها.. وسنوات عملي وكفاحي الخمس والثلاثون ... وسنوات زواجي التي هي توأم لسنوات عملي — كلها كانت سنوات هادئة راتبة كأنها بحيرة بحيرة في قلب صحراء بعيدة .. بعيدة .. مجهولة الا من قليلين ، يردون على عينها يشربون .. ويأكلون .. ويستريحون . ثم يشدون الرحال ويضربون في الارض — هؤلاء هم أولادي، خلال سنوات زواجنا الاولى كان يرد الينا واحد جديد كل عام حتى اصبحوا دستة ! فمسكنا انا وروجتي الطيبة المسلمة اكفنا الى السماء نحمدها ونتوسل في دعسة ان تتفضل علينا بالرزق ، لا بالولد — حتى لا تجف البحيرة ويملك واردوها ! وقد استجابت لنا السماء واكرمتنا بالستر والصحة والابناء الاثنى عشر وحسب ! توظف منهم من توظف وتزوجت منهم من تزوجت ، ولله ألف حمد وشكر . طعما ه ستر لسات حلو . وتهادت سفينتنا كنسمة رقيقة ، قد لا يشعر بها احد لكنها هناك ... في المؤخرة ... في الظلال ... تعمل في صمت ورضا وتواضع .

وهكذا . عشنا انا وزوجتي في أمان . انا قصير القامة ، وهي اقصر مني ، انا مسالم ، وهي مسالمة اكثر مني ، رحلاتي الهامس عندها أمر ، وحاجتها التي لا تجاهر بها استحياء بل تفصحها بها عينها ، عندي انا واجب مقدس اذا اقترحت اقتراحا — مجرد اقتراح ، التقطته في التقاطا ، تمضي لي مطرقة كأنها كانت عليها من عل وتقول لاعماتها .

— « ابوكم قال هذا ، لابد من تنفيذه ! »

ويطيعون امامنا .. ويكبرون .. وينجحون .. ويسعدون ... ويسعدونا معهم .

فماذا سيفعلون الآن بعد موتي — بالاصح ، بعد مقتلي ؟ فطبعا سيقتلني هذا الرابض في الظلام تحت المقعد .. في قطار نصف الليل ... والمسعد حولنا رهيب غامض ... والليل كحل ... وضوضاء العجلات تند ابة استغاثة ... واهل القطار مجهدون نائمون تائهون لاهون عني وعن مأزقي!

فانعصمت عيني — تماما طفل سد عنه خطرا يغمض عينيه ! ربما كان دوارا هذا الذي شعرت به ، ربما كان لاني فعلا اريد ان امحوه وان لحظات .. هاتين العينين الرهيبتين اللتين ترمقاني هكذا وتشلاني مكاني ، كأني عصفور في حضرة ثعبان ! .

ثم .. يا للهول .. ما .. ما هذا ؟ انه بدا يزحف خارجا !

تقهقرت سريعا ، ازحف مركبي الى الخلف .. وعيني في عينه معلقة .. ويده معلقة لم تزل على ذراعي !

فلما استوى واقفا على قدميه ، كدت اهوى انا من طولي ! تخلخلت ركبتي كأني مريض منذ سنوات .. ووقفت حواره اكاد لا أصل الى كتفه . مطرق كتلميذ مذنب . لكنني رفعت رأسي بسرعة عند ما سمعته يتحدر باكيا ! يبكي ؟

لساني عقد ، لكن قلبي رق له . فمن كل لااكثر — في مثل عمر ؟ صغوت؟ ابني . عمر يدور حول العشرين . لابد

ثم ـ اكب القطار بلا تذكرة . مسكين يا ولدي ! ظروف دنيا . لا خير . ماخرجت لفافة بعد ؟ لا تسالوني عن مدى رعشتها ! لكنني تمالكت وقد سرى مني شيئا . لا ، لم اكلمه . ولا كلمة . لم اصمن نفسي . فقط أشعلت اللفافة وعرضتها عليه في صمت . فمسح وجهه العارق في دموعه بكلتا راحتيه المسوطتين ، ثم تناول اللفافة مني بلهفة وان ارتعشت اصابعه هو الآخر وراح ينفث منها حلقات من دخان تكاثفت محمحمة مسرعة نحو الحجرة الضيقة حلقة .. وراء حلقة .. وتلحق بالاثنتين حلقة ثالثة ورابعة ، في تشكلات استعراضية تتكور .. وتنبسط .. وتسمح .. ثم تتلاشى ، كأنما تلهو .. وهو يتفرج عليها . ثم ألقى اللفافة على الارض قبل ان تنتهي وعركها بقدمه ، والقى بنفسه على المقعد — يلهث ويلهث كأنما هو قادم من مشوار بعيد .. مهمور الانفاس ... مشعث الشعر .. رائع النظرات ... مشعث الاعصاب ... منهار تمام الانهيار !

فارتكنت الى الجدار من فرط دهشة

عقدت لساني .. وتفكيري .. ومنطقي ، فعقدت بدوري ذراعي على صدري ، ارمقه في انبهار . ومرة ثانية تخاذلت ركبتاي تحتلبان مني . فاستنجدت في سري بجميع اولياء الله الصالحين وقرأت لهم الفاتحة . ثم بدا لي فجأة أن اطمئن على حلقة مفاتيحي — مفاتيح مدعمتي . ربما تكون قد انزلقت من جيبي عندما انحنيت اركع بلا روية لابحث تحت المقعد عن كرة الورق بمطلع الدحلجة — بركتي تلك الرعناء ! القت بي في تلك

العمى . بترب .. يترب .. ألقى جيبك .. بطرة !

هنا انتبهت بعد ما اطمأننت وقد ارتطمت يدي داخل جيبي بحلقة المفاتيح ، وانشرح صدري لصلصلتها .

مكافئة تلك الحركة القاصية !

ارتمى الشاب على ركبتيه امامي ، يضم قبضتيه تحت ذقنه في قوة وتوتر حتى برزت عقل اصابعه شاحبة قد هرب منها الدم ، وهو يبتهل ويتوسل ويضرع

— « حنانك ، سيدي ! رحمتك بي ! حنانك ، سيدي ! »

فلم أجد صوتي .

حناني أنا ؟ رحمتي به — أنا ؟ من هنا المذعور ؟

... وهو مسترسل وصوته أبح محموم من فرط ذعر

— « سوف اسلمها اليك — البضاعة كلها ، كلها — خذها ! هاهي ذي كاملة غير منقوصة ! لم تمسسها يد ! لم انقص منها جراما واحدا ! » جرام ؟

ماذا يهذي هذا الفتى ؟

لم افهم . ولم أخف عنه جهلي . فعاد :

— « آه .. تماما انت ، انت تماما كما قالوا لي عنك : تدعي البلادة والغباء وتنكر شخصيتك الحقيقية الخالدة .. دائما .. ولآخر لحظة ! »

فدفعت طاقيتي الى الامام على جبهتي ، لحك قفاي في حيرة . نسيت أحكي لكم

انى احتفظ دائما بطاقية « كستور » فى جيب ستريى لادفىء بها راسي أثنـاء السفر . ام الاولاد الله يسترها لا تنسى ابدا ان تعمر لى نصف دستة من كستور الشفاء لعمل هـذه الطواقى التى لاغنى لى عنها فى رحلاتى كل خميس .

دعكت طاقيتى على جبهتى ، احك دماغى بحيرة وارتباك شاردا . شخصيتى مطلية وخالده !

عالجت التفاهم معـه . تحججت لاستجمع شجاعتي ، وما كنت ابدا :

— « والله يا بنى ... »

... حتى قاطعنى ؛ يرحـف على ركبتيه عند قدمى ويرفع لى وجهـه المتقلص من ذعر :

— « السحت ملك سلسلة القيد الحديدى الـذي تحتفظ به فى جيبك للقبض على امثالى ؟ »

صرخت بحزع .

— « قيد حديدي » وارتبدت ريقى مسموعة .. «مال الله ولا مالك ياشى!» ثم ضممت اصابعى فى طاقة اهزها تحت انفه .. « والنبى الله يهـديك يا بنى ويجعل هذه الليلة نمر بخير ! كف عن هذا الكلام الرهيب ! لم هـذه البشرى المخيفة ! أوقعت قلبى ، الله يسامحك !

واستدرت لأجلس وقـد كاد يغمى على . لكنه انقض يحتضن ساقى وهو راكع امامى حتى كدت أتدحرج فوقه . فلما شعرت بذراعيه قويتين كأنهما كبلنى بحبل ، تلوت الشـهادة فى سرى مستسلما وروحى فى حلقى تحشرج تكاد تفر ، وقد تأكد لى ان ساعتى دنت! هذا المسود سيقتلنى ويتم مـشوارى !

صحت بأعلى صوتى من حلاوة الروح :

— « ملرب يا محين ! .

ودمعت الفتى عينى فى محاولة اخيرة يائسة . مترك ساقى لكنه انقض يختطف يدى يلثمهما ويشمهما بحنو ويمرغ وجهه عليهما ، وجهه وعيناه مغلقتان مسح منهما دموع ساخنة لاسعة . ثم سحبهما .. يداى المرتقتان السميكتان بين قبضتيه السمراوين اللتين تشمـلان كلاهما من سلب ، وراح يحار فى صراحة :

— « استحلفك بكل غال يا سيدى الا تتلاعب بأعصـابى اكثر مما فعلت ! انك أبرع من اى ممثل فى هذا العالم — هكذا قالوا لى ! تدعى التخاذل والشيخوخة والضعف ، ثم تنقض ! ولا يخيب انقضاضك ابدا ، ابدا ابدا كلما .. ارسلوك تلك المهمة ... نرصح مع لص امهاتنا اسلوبك الفذ الذى لا يطيش ابدا فى الايقاع بنا ! اسلوب استاذ ضليع فى حقله متمكن من فنه يعمل علمه الغزير !

علم غزير ؟ انا « ابو سمرى » ؟ علم غزير ؟ هرشت كتفى . والله راس مالى لا يزيد عن ايمانى وامانة ، لذا سلمونى مفاتيح المخازن فى الضبيعة التابعة لوزارة الاوقاف فى «كفر ابو طشت» !

حاولت تصحيح معلوماته !

— « يا بنى انا رجل على قدر حالى ! انسان متواضع تجد مثلى آلاما يكدحون ويعملون جاهدين فى تربية حفنة ابناء تربية طيبة قويمة صـالحة لنفع مهم الوطن ! »

— وهو على حاله ، كأنه اصـم

لا يسمع ، يهذى ويهذى كأنه في أسر حمى خبيثة حلت عقال لسانه :

ــ « تملبا ، تملبا .. انت ، بلحمك وعظمك ! معلومك عنك تتبد مان هذا طبعك : نكران نفسك لن يتعرف عليك ! سيدى اقبض على من فورك وارحمني ! وقوع المصيبة ولا انتظارها ! بالله عليك كف عن لعبة القط والفار هذه التي تلعبها معي منذ وطئت القطار ! لقد نسفت اعصابي وتناثرت هباء وهلكت تماما من فرط توتر وترقب ورعب طوال الرحلة من البحر الاحمر .. عبر الصحراء .. ثم هنا عندما انحشرت بين المسافرين في قطار الليل فأوقعني سوء حظي في الحجرة عينها معك ــ من لا أخشى في الدنيا سواه ! من لم يخطر في قوس الا معه ! »

ثم رفع رأسه عن ركبتي حيث كان يمرغ وجهه عليها ويهذى ويهذى ــ رفع رأسه لينطلع لحظة خاطفة من خلف زجاج النافذة ، وحملت كفاه من عرق تلمع ويمسح بها وجهه مع كل حلمة من حلمقه . ثم صرخ بي :

« ها هي ذى أضواء محطة العاصمة عدوا يريك ضيع حدا لعذابي !

اعرف انى هالك معك ــ هالك ! اعرف الا فائدة من مقاومتك !

اعرف لن تتوك متوة عشرين ! اين القيد الحديدى ؟ اين ؟ هاهما يداى .. كلتاهما ! خذهما ! خذهما !

وكان القطار حينئذ يندفع داخلا اطار المحطة وهو يطلق صفيرا طويلا ظافرا ، كأنما انى بما لم تأت به الاوائل !

.. والفتى يعرعر بصوت متحشرج كأنه حبل بعضوبه .

«اقبض على ، وارحمني ! سأسير معك في هدوء ! فلم تعد بي اعصاب ! هدمتها انت بصوتك وبرودك : تاكل وتضطجع لحظات .. ثم تغفو .. ثم تصحو .. وتتحرك ببساطة وحرية واما انلوي تحت مقعدك ! هاهما يداى ــ كلتاهما ! خذهما ، خذهما ! »

فانقبضت يديه بين قبضتي كلتيهما ، حتى يكف عن الصياح هكذا ! والثمت عنه ومن هذيانه ، الصق انفي بزجاج النافذة احلق ملهمة في الوجوه على الرصيف لعل احدا من اشباحه سيستقبلني اليوم ، فيخلصني من هذا البلاء !

وما كاد القطار يهدىء من سيره استعدادا للتوقف ، حتى انفتح باب حجرتنا وسدت فتحته شرذمة من رجال الشرطة وعلى رأسهم ضابط .

وقد درت على عقبي سريعا والضابط يقفز ويلقي بنفسه علينا ويلتقف يدى الفتى مني ، ثم يطبق على معصميه بقيد حديدى غليظ ــ في سرعة أسرع من مروق الخاطر ثم هذا كله !

ثم التفت الضابط الى مبتسما :

ــ « اقدم لك بالغ الشكر يا استاذ استاذ . »

فتحللت وضربات قلبي تصم اذني ، أشيعه .

ــ «محسوبك» معولى السطوبي أمين مخازن تفتيش « كفر ابو طشت »

فشد الضابط على يدى بقوة وامتنان .

ــ « لقد ساعدت العدالة لتاخذ

محراها مساعدة اكيدة لعالة بحكائك الفذ وتفطنك الرائعة وسرعة بديهتــك وشجاعتك الخارقة ! »

... وأنا أربت صدرى ، مطرقا :

— « العفو ، العفو ! لاشكر يلفى على واجب » !

فأكد بصدق واخلاص :

— « صدقنى ، لولا أنت لافلت اللعين ، ولما تم القبض على أخطر تاجر مخدرات أرهقنا سنين طويلة ! »

متألقت أمالى ، :

— « تاجر .. ما .. ماذا ؟ هو متى متى وحسب .. و .. » مقاطعى :

— « متى ؟ انه من التاسعة والثلاثين و... وكلى لم يتعد العشرين — وتلك أمور سخيفة ! »

ثم اشار الى جنتيين :

— « هاتوا الصاعة ! »

مشاداننت الضابط وارتميت على أقرب مقعد ، انكمش والألم ساقى تحتى كأنهما طفلى المذعورين — واوسطى مفككة .. وريقى جاف .. وعرق بارد غرير بعرقى . وكانت عيناى تررلى من محجريهما واحد الجنديين ينزل رأس الغزال عن الرف ويضربه «بالبوكس» ليشق الجلد المرع عن « رزم » المخدر المهرب . ثم انثنى على الصرة التي طست بها ثيابا .

وعبقت الحجرة بالرائحة المعتادة المعروفة .

فرمانى المحرم بنظرة كالطلق النارى ، نبح من بين أسنانه .

— « اذن لم تكن تكسف على شيخوخك وزهك ! انست ادى « محراوى » ، المخبر السرى العربى العالمى الشهير ! »

ضحك الضابط وهو يقلبنى :

— « معلا ، تشبه له انت جدا ! الا انه الآن فى « سكوتلانديارد » التى دعته ليلقى على رجالها محاضرة عن اسلوبه الفريد الذى ابتكره ويتمه فى تفهم نفسية المجرمين وفى تعقبهم — بنجح دائما رغم ضآلة حجمه وقصر قامته .. وضعفه البادى ! »

... وأنا غائر فمى كالمعتوه ، أدير عينى بين المجرم والضابط !

وعندما غادرتنى القافلة المميزة ، انتصحوى الضابط ، يكرر شكره باسم الفقون ثم الح على :

— « لابد ان تتوجه غدا الى المحافظة لتتسلم جائزة مالية كبيرة لمعاونتك لنا فى ضبط كميات المخدر الهائلة تلك ! »

فطار بالى الى شقى رقم اربعة التى جاءها خاطب لكننا اضطررنا للاعتذار ، ممطل بأمور كثيرة الا الحقيقة — مع ان البنت فى عرها ، والشاب متعلم وابن حلال !

وعندما تخيلت فرحة امها لحظة تسمع منى بالنقود التى هبطت علينا من عند ربنا ، هتفت فرحان جذلان :

« والله رزقك فى رجليك يا « مغربية » يا بنتى — جهازك حضر ! »

الم اقل لكم منذ بدء الكلام انه صديقى المحور — صديقى جدا ، فطالع السعد هذا !